بحثًا عن الهويّة الضّائعة في روايّة بدايات لأمين معلوف

In search oft he lost identity in the novel Origines by amin maalouf

أ. عبد المجيد بلخوص♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال: DOI 10.33705/0114-027-002-012

تاريخ الاستلام: 04-11-2024 تاريخ القبـول: 24-02-2025 تاريخ النّشر:15-06-2025

ملخّص: إنّ روايّة "بدايات 2004" للكاتب الفرنكفوني أمين معلوف هي سيرة الهويّة، هي تتمة لكتاب الهويات القاتلة 1998، والرّوايّة في مجملها سيرة عائليّة عن هويّة ضائعة بين تضاريس الجغرافيا تارة (هافانا، لبنان، باريس) وبين الأزمنة تارة أخرى (بدءا من 1889 وصولا إلى الحاضر)، نهدف في هذا البحث إلى الاقتراب من مفهوم الهويّة ومكانتها وجدوى البحث فيها في الفكر العربي المعاصر، وكيف تعزز بحث الهويّة بفضل المجهود الجبّار الذي أظهره أمين معلوف في نتاجه الفكري، متكئين على المدونة المذكورة.

ثمرة هذا البحث هي معرفة كنه الهويّة كما أرادها أمين معلوف في كتابه والتي هي شذرات اجتمعت في تفاصيل دقيقة التّحقت بالماضي في وقت سابق ثم اقتحمت الحاضر بغرض فهمه واستيعابه، تأكيدا لإحساس الأصالة والانتماء، فهما المسؤولان عن تأطير مفهوم الهويّة الذي من شأنه أن يواجه العولمة التي تبغي اقتلاع الجذور ومن ثمّة الحلول كبديل.

كلمات مفتاحيّة: بدايات؛ أمين معلوف؛ هويّة؛ عولمة؛ انتماء.

♥جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله. الجزائر، البريد الإلكتروني: madjidb6@gmail.com (المؤلّف المرسل).

Abstract: The book "Beginnings of 2004" is a story of identity, and it is a family biography about a lost identity between (Havana, Lebanon, Paris), and (1889 to the present). In this research, we aim to find out the benefit of researching identity, based on the aforementioned book.

The result of this research is knowledge of identity, which is the past, and the desire to understand the present, affirming the sense of authenticity and belonging, as they are responsible for the concept of identity that would confront globalization, which means uprooting the roots

Keywords: origines; amin; maalouf; identity; globalization; belonging.

1. **مقدّمة:** احتل سؤال الهويّة مكانا كبيرا في حقل الدّراسات الإنسانيّة وفي الفن الرّوائي، ذلك أنّ السّرد إنّما هو بشكل ما تمثيل للهويّة وتجلّ لها، والدّليل على ذلك هو ما يُتيحه النّص الرّوائي المحلّي وهو يُترجَم إلى لغات العالم، من معرفة معمّقة بعادات الشّعوب وتقاليد الأمم وتراثها اللامادي، ذلك الذي يحقّق خصوصيّة هوياتيّة، من شأنها أن تنفتح على منافذ إضافيّة لاستيعاب الثّقافات التي تتباين وتتنوع، في هذا السّياق يكفي أن نذكر نجيب محفوظ وغابرييل غارسيا ماركيز، فالأول انطلق من الحارة بكل ما تمثّله من رمزيّة من شأنها أن تُسهم بشكل فعّال في رسم هويّة النّص الرّوائي، أما الثّاني فكان له أن صنع لنفسه واقعيّة ارتبطت به، تخوض في الغرائبي والسّحري بغرض صياغة الواقع في شكل جديد لم يعرفه الأدب قبل ذلك، وهو الشّكل الذي استعاره منه جل روائيي أمريكا الجنوبيّة في وقت لاحق، ثم تحول إلى أحد الأسس التي يُعرف بها النّص اللاتيني.

أبان كتاب بدايات للكاتب الفرنكو–لبناني أمين معلوف عن هويّة ممزّقة وقد اخترنا لها هذا الوصف لأنّ الكاتب سيبحث عنها في ركام الماضي في

صندوق الرّسائل ومن أفواه كبار السّن، يُضاف إلى ذلك تعلّقه الشّديد بسؤال الهويّة، ذلك أنّه كان قد نشر في وقت سابق كتابا سمّاه الهويات القاتلة وهو العنوان العنيف الذي يريد أن يكشف فيه عن مأزق الهويّة عندما تقف في مواجهة هويات أخرى مختلفة عنها.

ينطلق البحث من الإشكاليّة التّاليّة:

–من المعلوم أنّ ضبط مفهوم مُحدد للهويّة، إنّما هو أمر على قدر كبير من الصّعوبة، ذلك أنّ الهويّة شتات موزّع على الحقب والأزمنة، وهي متغيّرة باستمرار لا تكاد تركن إلى إطار محُدد ومستقر، بهذا المعطى يتحول بحث الهويّة إلى بحث إشكالي، عليه أن يُجدّد أدواته باستمرار.

–لماذا تتوارى الهويّة مدة من الزمن خلف ستار الأحداث، ثم تظهر من جديد متسيّدة الرّاهن؟

–لم تتوفر الهويّة على تلك الميزة الخارقة، وهي الانتقال من الجغرافيا التي نبتت فيها نحو العالم الرّحب، لكي تلقي بأسئلتها المُعلّقة، مُتصارعة مع هويات أخرى؟ كذلك الأمر مع أمين معلوف فهو مستقر في فرنسا منذ ثلاثة عقود إلا أنّ إشكال الهويّة المستحوذ على فكره، أثمر كتابين اثنين (الهويات القاتلة وبدايات).

تهدف الدّراسة إلى الانطلاق من هاته النّقاط الثّلاث قصد صوغ مفهوم الهويّة انطلاقا من المدونة المدروسة، ذلك أن الهويّة هويّات، وبما أنّها على علاقة وطيدة بالإنسان مهما كان جنسه وعرقه وثقافته، فإن التّجربة الإنسانيّة على اختلافها هي المسؤولة عن تأطيرها في حقبة ما، ومن ثمة تكييفها مع المنعطفات التّاريخيّة المهمّة، لذا فالهويّة هي الإنسان في تفرّده في انعزاله وفي تعايشه مع الآخر المختلف دوما.

أمّا الهدف الأساس الذي ابتغينا تثويره دون أن ندّعي أننا قد أحطنا به علما ودرايّة فهو كالتّالي: ترى ما جدوى البحث في الهويّة، التي تستعصي عن الإحاطة؟

اعتمدنا على المنهج الوصفي، بغرض تتبع مسار الهويّة كما وردت في كتاب بدايات، ثم جمع القرائن التي تخدم هذا المسار الذي ميّزه الصّراع الكبير ذلك أن الكتاب يغطي حقبة زمنيّة تتجاوز قرنا من الزمن.

2. في مفهوم الهويّة: تحوّل البحث في سؤال الهويّة إلى مطلب لا سبيل إلى تجاهله، والسّبب في ذلك هو هذا التّطور الرّهيب الذي يشهده العالم في كل لحظة، على هذا النّحو كان المرء ملزما بمراجعة نفسه باستمرار، إذ لا مجال للاستسلام للمسلمات واليقينيات مهما كان مصدرهما، فقد أثبت الواقع ألا سبيل إلى التّجانس بين ثقافتين اثنتين، بل إنّ الاختلاف هو الذي يبرز سمات هذه في مقابل تلك، سواء في الثّقافة العربيّة أم الغربيّة، فالوقوف أمام الآخر هو مصدر شعورنا بالنّقص "فالمختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو ما لا تملكه أي أن الذات في مواجهة الآخر إنّما تواجه نفسها منقوصة، تنظر في مرآة عوزها[1]" (سعد2006) والاختلاف الذي نقصده هنا هو "اختلاف ثقافة عن أخرى بوصف تلك ظاهرة محسوسة، وتشهد بها سمات عديدة في الثّقافة نفسها أبرزها اللّغة والمعتقدات، والتّاريخ والتّقاليد والمنتجات المعرفيّة والذوقيّة من علوم وآداب وفنون وكذلك أنماط السّلوك وطرق التّعبير إلى غير ذلك ممّا يدخل في باب البداهة ولكنّه يحتاج إلى استعادة بغرض التّأمل والتّحليل[2]، (سعد 2008) في هذه الحالة ليس لنا إلا التّسليم باستقلاليّة الثّقافات ومن ثمة اللغات عن بعضها، حتى وإن وجدت نقاط تماس بين هذه وتلك، كان لزاما علينا الإقرار بوجود متّسع للاختلاف وهو متّسع يجعل البحث في مفردات اللّغة مبحثا له قدر من الجدوى والأهميّة.

لا يخفى أنّ للهويّة مدلولات فلسفيّة واجتماعيّة ونفسيّة، وما الأدب إلا حامل لعدد لهذه الملولات لسبب بسيط، وهو أن الأدب أحد طرائق التّعبير الإنساني في عالم تحوّل إلى قريّة صغيرة بفعل التّكنولوجيا والغزو الثّقافي، وهو الأمر الذي أقحم سؤال الهويّة في ميادين البحث والعلوم، رغبة في تجديد الصّلة مع الأنا، هذه الأنا التي تنسحب على ماض وترسم معالم حاضر على قدر كبير من الخصوصيّة.

الهويّة كما يعرفها قاموس المنجد هي حقيقة الشّيء، المُشتملة على صفاته الجوهريّة، وهي كما هو ظاهر مشتقة من الضّمير هو الدّال على الشّخص أو الآخر، أما في اللّغة الفرنسيّة فهي مشتقة من لفظ (l'identité) وهو مشتق من الكلمة اللاتينيّة (Edèm) التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما، وعند لاروس هي مجموع الظروف التي تجعل من الشّخص شخصا مميزا، أو مُحدّدًا، أمّا روبير فهي ما يسمح بالتّعرف على شخص بين جميع الأشخاص الآخرين، أو هي الحالة المدنيّة والصّفات المميزة للشخص[3](منور 2007)، أمّا مفهوم المصطلح في المعاجم الأدبيّة، وهو الجانب الذي تبحث فيه هذه الدّراسة، فيعني" سِمَات مُميّزة للكاتب أو الفنان، تبرز في نتاجه وتُشيع فيه لونا معينا هو في واقعه مُحصل للمران الطويل، وللموهبة المثقفة، وقد تكون أيضا مجموع الخصائص العينيّة المميزة لأثر فني أو لمجموعة من الآثار"[4](جبور 1979).

سنجيز لأنفسنا بأن نتساءل مع أمين معلوف الذي طرح في كتابه الهويات القاتلة (les identités meurtrières) تساؤلا على قدر كبير من الشّرعيّة إذ صرح بأنّه يرتاب في مفردات اللّغة التي توحي للوهلة الأولى بالشّفافيّة، في مقدمتها نجد مفردة هويّة، فهي اللفظة التي توحي بالشّفافيّة والوثوقيّة إلا أنّها قد توحي بالنّقيض بصورة خبيثة، فالبعض قد يقتل بسبب هويته الدّينيّة والإثنيّة

والقوميّة، بمقدورنا أن نقرأ على ما اصطلح النّاس على تسميته بطاقة هويّة ما يلي: الشّهرة، الاسم، تاريخ الولادة ومكانها الصّورة الشّمسيّة، مع ذكر بعض العلامات الفارقة، وتوقيع حاملها، هذا ويختم أمين معلوف بقوله:

إنّ هويتي هي التي تعني أنّني لا أشبه أي شخص آخر[5](معلوف2010).

وبالتّالي فإنّ الهويّة للوهلة الأولى تعني الانتماء بأشكاله المختلفة (لغوي. ديني. سياسي...الخ)، فالمرء يصبح حاملاً لهويّة ما إذا أقر باختلافه عن البعض ومشاركته للبعض الآخر في سمات محددة، فهل يكون مبحث الهويّة على هذا القدر من البساطة إذا ما تعلق بالفن الرّوائي؟ ذلك أنّ أسئلة الهويّة في الرّوايّة المعاصرة لا تنحصر في لغة واحدة، لسبب بسيط وهو أنّ الرّوايّة تنفتح على كل لغات العالم الحيّة، وتتخذ من الفضاء الزمكاني الإنساني مسرحا لها.

3. بدايات وسؤال الهويّة:

1.3- بحثا عن الهويّة الضّائعة: انفتح الفن الرّوائي على الإنسان بشكل كبير جدا، فكان أن حملت النّصوص الرّوائيّة همومه وأحلامه وطموحاته والرّوايّة التي تسافر بين الأجيال والحقب، هي التي قاربت الإنسان بوعي وثبات، أي اتسعت لميول الإنسان مهما كان لونه وعرقه، بغرض سبر كُنهه وذلك عبر استنطاقه والإنصات إليه وهو يتحدث عن رؤاه وطروحاته المتصلة بالوجود من حوله، والنّص الرّوائي يكون ذا جدوى متى أجاد الاستثمار في خصوصيّة الشّعوب والثّقافات، ذلك أنّه- مُتجاوزا الواقع- يتسع للاختلاف والتّنوع، للتنوع الصّوتي واللغوي، لحوار الأفراد المستقل عن سلطة كل من الرّوائي والرّاوي على السّواء، وعليه "فالرّوايّة الإيجابيّة، هي التي تتجاوز في رؤيتها ما هو موجود في الواقع، من أجل البحث عن قيم أصيلة غير موجودة في الواقع، وهذا سر القيمة الإنسانيّة والفنيّة لأي عمل إبداعي على اعتبار أنّه

ليس عملا ثانويا، وإنّما يسهم في تأسيس المستقبل الإنساني"[6](لحمداني1985). وفق هذا المعطى تتجاوز الكتابة الرّوائيّة كونها مجرد بحث فائض عن الحاجة بل بالعكس، نجدها قد تحولت إلى جهد جبار بمقدوره استشراف المستقبل بالاتكاء على الظرف الرّاهن كما يراه الرّوائي، وليس كما يراه اليومي البسيط.

الواقع نوعان: واقع النّاس العاديين، وهو مُدرك للوهلة الأولى، بشكل مباشر وفوري، لا مكان فيه للتأني والملاحظة، واقع مُحدّد ومكرّر على السّنة الفرد الغارق في الرّوتين اليومي، وفق هذا المعطى يتحول الواقع إلى مجرّد مظهر يوهم بالواقع، فهو مرفوض من طرف الرّوائي الذي يضع نصب عينيه واقعا آخر خاصًّا به، ذلك الذي يبصره بمفرده لسبب بسيط وهو أنّه مُتعلّق بالمجهول، باللامرئي الذي عجزت الأشكال التّعبيريّة عن الإلمام به، لذا كان لزاما عليه ابتكار طرق جديدة للبحث والمكاشفة[7] (ناتالي2018)، على هذا النّحو كان بحث أمين معلوف عن هويته الضّائعة، تلك التي تركها خلفه في لبنان هروبا من الحرب الأهليّة، في كتاب الهويات القاتلة نجده يتحدث عن أسرته موظفا عبارة (امتحان هويتي، mon examen d’identité) وفيها يعبّر بشكل مباشر على أنّ مطلبه ليس الاكتفاء بانتماء أساسي يحقق معه التّماهي المطلوب، بل بالعكس، هو يريد نبش الذاكرة بغرض إيجاد أكبر عدد من عناصر الهويّة دون التّنكر لإحداها، يُفهم هذا التّنوع إذا علمنا بأنّه ينحدر من أسرة قادمة من جنوب الجزيرة العربيّة، استقرت في جبل لبنان من قرون، ثم عرفت هجرات متعاقبة، من مصر إلى البرازيل، من كوبا إلى استراليا، وهي أسرة مسيحيّة عربيّة في آن، فهو مسيحي لكن لغته الأم هي لغة القرآن وهو الأمر الذي يحمل بعض التّناقض، في ذلك يُقر بأنّه على قرابة بكل عربي وكل مسيحي في العالم، قرابة دينيّة وفكريّة من ناحيّة، لغويّة ثقافيّة من ناحيّة أخرى.

لذا فإنّ الرّهان الذي يريده في كتاب بدايت(Origines)، ليس هو الثّبات، إنّما التّنوع، أو هو شكل من أشكال القطيعة من مسار الهويّة المستقيم طلبا لهويّة ثانيّة تّسع للاختلاف والتّنوع. في ذلك يقول: "غيري يتحدث عن الجذور، تلك ليست مفرداتي، فأنا لا أحب كلمة جذور، وأقله صورتها، فالجذور تتوارى في التّربة، تتلوى في الوحل، تنمو في الظلمات تبقى الشّجرة أسيرة، منذ ولادتها وتغذيها لقاء ابتزاز: لو تحرّرت تموتين"[8](معلوف2004).

ارتبطت عمليّة البحث عن الهويّة الضّائعة بصديق دبلوماسي يُدعى لويس دومينيغو عمل صحفيا في بيروت، كان قد سأل أمين معلوف إن كان على صلة بمسؤول كوبي يشترك معه في نفس الاسم، أرنالدّو، هكذا كان اسم المسؤول الكوبي، رد أمين معلوف بالسّلب إلا أنّه _من حيث لا يدري_ فتح خزانة الماضي إذ صرّح بأن له أقارب عاشوا فيما مضى في هافانا، لا بل أكثر من ذلك، لاحقا سيجتمع بلويس دومينيغو في باريس، وسيحكي له مغامرة جده في هافانا، إذ سافر هذا الأخير لنجدة أخيه والمرافعة في محاكم كوبا بالاسپانيّة التي تعلّمها على متن الباخرة، أمام هذا المعطى سأل هذا الدّبلوماسي أمين معلوف إن كان يرغب في الاتصال بهذا القريب وتوجيه رسالة إليه فقبل، إذ ذاك تملّكه شعور غريب يقول عنه أنّه شبيه برمي زجاجة في البحر.

تتكئ بدايات على سرد الماضي بنشوة تتضاعف باستمرار، ذلك أنه – أي السّرد–"قادر على مقاومة النّسيان، لذا اتُّخِذ تقنيّة لحمل الماضي إلى الحاضر وحفظه فلولاه لضاعت الخبرة الإنسانيّة واندثرت، ولما أمكن تناقلها من جيل إلى جيل"[9](بوعزة 2016). نفس الأمر ينطبق على بدايات، فهي النّص الذي أعاد الهويّة الضّائعة، تلك التي كانت تقبع في ثنايا الرّسائل والأوراق وذاكرة عدد من كبار السّن، أمام كل هذا عاد أمين معلوف إلى سابق عهده باحثا متقصيا، فهو الذي كان إلى وقت قريب صحفيا شابا، اشتغل محررا لجريدة النّهار اللبنانيّة

ومراسلا لأحداث سياسيّة مهمّة منها حرب فيتنام، في ذلك يقول:" أنا الذي أتميز بطبعي المنقب، أنا الذي أقوم خمس مرات عن المائدة للتحقق من أصل كلمة ما أو تهجئتها الصّحيحة"[10](معلوف2004).

في ثنايا السّرد تتراءى الهويّة في صور عديدة، بعد أن تتخذ مسارا محددا ستصطدم بعدد من الصّعوبات والمعضلات، وذلك هو الرّهان الذي سنقاربه في هذا البحث.

2.3-مسار الهويّة: ينطلق أمين معلوف من الحاضر صوب الماضي بحثا عن شتات هويته "لأننا بشكل ما في حالة بحث مستمر عن هويتنا المغيبة لإثبات حضورنا الواقعي، هذا ما دفع بالعقل العربي إلى التّساؤل عن ذاته وأصله لإزاحة لبس الهويّة، التي أصبحت حقيقة يصعب الإمساك بها لحساسيتها جراء الرّاهن وتجاذبات أحداثه المتسارعة"[11](أسماء2003)، وهو الشّتات الذي توزع على الآباء والأجداد (بطرس، جبرائيل، بطوس، ساسان خليل، صوفيا، نظيرة،...)، لذا كان على البحث أن يأخذ مسارا ما لكي يعود بالمنفعة التي يصبو إليها، في ذلك يقول: "سوف أستنطق الأموات طالما لم يعد استنطاق الأحياء يجدي نفعا، على الأقل الأحياء الذين تركوا شهادات"[12](معلوف2004).

زيارة والدّته الى باريس آخر مرة لم تكن مثل سابقاتها، إذ أهدته صندوقا من الرّسائل القديمة، حفظ طوال سنوات سابقة مراسلات تخص العائلة، ورسائل وصور ودفاتر وقصاصات وجرائد وإيصالات وصكوك رسميّة، كان الصّندوق بركة من السّماء تنزل على الكاتب، عبر عدد من الرّسائل المكتوبة بخط اليد وأخرى مسودات، ستكون البدايّة الأولى، أول رسالة كانت مؤرخة في شهر أكتوبر 1989، تحمل توقيع الجد بطرس، كان قد أرسلها إلى والدّه من إقامته في مدرسة المعلمين التي دخلها بدون رضا والدّه، وفيها يستعطفه مبديا التّذلل

والطاعة، كانت الرّسالة لا تخلو من التّذلل والخنوع، ذلك أنّ الأب والابن كانا قد تخاصما بسبب تخلي الابن عن أعمال الحراثة ورغبته في الرّحيل ومتابعة التّعليم (يشير أ. م إلى أن مثل هذا النّزاع نشب في الأسرة في وقت سابق) عارض الجد طنوس رحيل ابنه لأنه خشي عليه الانحراف إن خالط الانكليز والأمريكان، أن يرجع إليه وقد تغيّر عقله، لكن خلافا للشجارات السّابقة انتهى الخلاف بين الاثنين، تُظهر الرّسالة أن الاثنين قد تصالحا لما فيها من عبارات الود والمحبّة.

أما بطرس الجد، فقد استقر في بيروت وتابع دروس الحقوق، ثم تعلم التّركيّة والفرنسيّة والمحاسبة، ثم استهل حياة مهنيّة جديدة في سلك التّعليم في مدرسة بروتستانيّة، لا حقا سوف يغادر إلى مدينة قريبة وهي زحلة، هناك سيشغل منصب معلم للرياضيات والحساب في واحدة من أرقى المدارس آنذاك (المدرسة الشّرقيّة الباسيليّة الكاثوليكيّة)، هناك رأى بطرس أن على عاتقه التّزام نبيل وهو إصلاح عقول الأبناء إصلاحا جذريا، لكن لم يكن كل ذلك ليقف عثرة أمام ما يسميه أ.م الدّاء الذي تعاني منه أرض الأجداد، ويقصد به سبيل الهجرة. في رسائل بطرس تكررت العبارات التي توحي بالملل من قبيل (الوضع المزري للبلاد، انهيار بلدان المشرق، تجهّم الأفق...ألخ)، كان ذا منزلة محترمة بين النّاس، بوصفه أستاذا وشاعرا وخطيبا، فقد كان له حضور في كل الاحتفالات، فهو كاتب مسرحيات في بعض الأحيان، متّخذا من الحياة المحليّة موضوعات لها، في هذه الأثناء سوف يأتيه كتاب من جبرائيل يدعوه فيه للحاق به الى هافانا. إلا أنّه سيعتذر مبدئيا لأنّه لا يستطيع ترك المدرسة قبل نهايّة السّنة، ولا ترك العائلة دون معيل، لكن دون أن ينزع فكرة الرّفض من ذهنه، إذ نقرأ في خاتمة الرّسالة رغبة ملحّة في الرّحيل. وهو الأمر الذي سيتحقق لاحقا فيكتب بطرس على إثر ذلك رسالة إلى المدرسة لإعلامهم بأنّه لن يكون معهم

في قادم الأيام. يحاول أ.م أن يعرف أكثر عن سبب الرّحلة فيأتي بهذا الجواب من الابن البكر لبطرس وهو كالتّالي: "في الفترة التي سبقت رحيل والدّي، كانت تصله من كوبا رسائل محترقة الزوايا، تشير إلى خطر داهم وخطب جلل، فلم يتردد وأبحر على متن باخرة، وقد سمعت منه ذلك شخصيا""[13](معلوف2004).

لم يطول مكوث بطرس في كوبا إذ سيعود بعد مدة وجيزة، هنالك سيتعلم الاسبانيّة ثم يعود إلى مدرسة زحلة.

في ثنايا رسالة أخرى موقعة في شهر أفريل 1912، تعود للعم جبرائيل الذي لم يعد مجرد طيف بلا ملامح، كان قد أرسلها لأخيه بطرس، في رسائل جبرائيل سوف يكتشف هذا العم الذي هاجر إلى كوبا في سن الثّامنة عشرة على متن باخرة، ، ثم استقر هناك أين ازدهرت أحواله بشكل لافت، فهو يظهر التّواضع لأخيه الأكبر تارة، وتارة أخرى نجده متحدّثا عن ثروته بشكل مبالغ فيه، إذ يجيز لنفسه التّباهي بنيته في شراء بنايّة تعود لشخصيّة مرموقة في كوبا، فيما بعد سيقع في المشاكل الأمر الذي يضطره إلى أن يطلب من أخيه البكر السّفر إليه لكي يعينه في تسيير ثروته، لكن بطرس لم يكن له أن يمكث طويلا إذ لم يكن للاثنين أن يتفقا على شيء، فالأوّل شاب ثلاثيني مقدام وشرس، والثّاني أكثر حذرا و تأثرا بالحياة الصّعبة التي لم يعهدها. في إثر ذلك نقرأ ما يلي: "لم أتمالك نفسي، فابتسمت بحنان، أجدادنا هم أطفالنّا، نلمحهم عبر ثقب الجدار يلهون في حجرتهم، ولا يلمحوننا هم"[14](معلوف2004).

3.3- صراع الهويّة: كانت سنة 1912، كانت فارقة بشكل كبير، لأنّها السّنة التي تقدم فيها بطرس لخدمة شابة تدعى نظيره وهي ابنة خليل صاحب أقدم مدرسة في القريّة، وهي بنت كان أن تبادل معها بعض الكلمات فأعجب بها، لكن والدّ البنت رفض الطلب، لأن الخاطب في الأربعة والأربعين ولم يسبق له أن تزوج، أما البنت لم تستوف العقدين من العمر، هذه المفارقة دفعت

أ.م للبحث عن نظرة الجد بطرس للنساء وهو الذي كان يتذرع لمن يلومونه في تأخر زواجه، بحجج كثيرة منها انشغاله برعايّة شقيقاته، لكن ما صدر عن ليونور وهي أحد أفراد الأسرة كان على العكس من ذلك، إذ تقول: "الحقيقة أنّ جدك كان لا يطيق النّساء، آه كان يعشقهن ولكنه لا يطيقهن، إذا فهمت قصدي"[15](معلوف2004)، هذا وأضافت بأن بطرس كان صعب المراس، وكان يرى بأنّه سيختنق إن تعلق ببيت أو وظيفة أو إنسان، فقد كان يستشيط غضبا حالما يرى سلوكا لا يعجبه.

كشفت الرّسائل عن عدد من القصائد الغراميّة، لم تكن موجهة لمحبوبة بعينها، كقوله: (ونهود رمان من عاج... من نور دافق كالأمواج) وفي أخرى يذكر أبياتا لسيدات تمتّعن بحظوة في حياته مثل تلك التي يدعوها مُعذّبتي.

صوفيا وخليل وهما والدّي البنت اتفقا على الرّفض، وعلى صرف بطرس بطريقة لبقة، فكان أن عبّر خليل لبطرس على أن البنت موهوبة في دراستها وهي عازمة على متابعتها إلى أبعد الحدود، وليس لأحد إلا أن يشجعها على ذلك. فهم بطرس المراد، لكنه طلب أن يتكلم مع البنت، قبل خليل على مضض احتراما لصلات القربى فتمّ اللقاء الذي انتهى على غير ما بدأ، إذ قبلت البنت بالزواج وها هو صندوق الرّسائل يكشف صورا لها وهي تفترش العشب في غداء احتفالي تارة، وتارة أخرى تظهر محاطة بالزوج والأولاد، أما عن تغير رأيها فيعود إلى أن بطرس كان قد عرض عليها تأسيس مدرسة عصريّة تكون نموذجا لكل المدارس الأخرى يديرها الاثنان، إذاك تكون نظيرة قد استلمت المشعل من والدّها خليل الذي تقدّم في العمر وليس له من يخلفه من أبنائه بطرس ونظيرة هما جدّا أمين معلوف جهة الأب.

حققت مدرسة بطرس نجاحا باهرا، وانتسب لها العديد من أبناء القريّة، لكن هذه المدرسة الفتيّة سوف تتهم بتعرضها للطقوس المذهبيّة، وذلك في حقيقة

الأمر امتداد لمعركة طويلة الأمد بدأت مع تصدي الاكليروس الكاثوليكي لمدرسة خليل أول الأمر، إلا أنّ الصّدام هذه المرة أكثر مشقة، إذا عدّت المدرسة من المهرطقين الذين يجب التّصدي لهم، فهم بزعمهم لا يؤمنون بمريم ولا بالقديسين، لذا قاموا بإنشاء مدرسة موازيّة بإدارة كاهن يدعى مالاتيوس أُسندت إليها مهمة إرجاع النّفوس الضّالة إلى الطريق المستقيم، ومع جريان الزمن تقدم خليل في السّن ولم يجد من يخلفه وبالتّالي تخليه عن المدرسة قامت العائلات بتسجيل أبنائهم في مدرسة مالاتيوس وانتهت الحرب بانتصار الكاثوليك، لكن الحرب الثّانيّة ها هي تنهض من جديد مع بطرس ونظيرة يجدر التّنبيه إلى أنّ بطرس لم يكن من أصحاب القداسة، فهو لا يُرى في قُداس الأحد ثم إنّ الأهالي يتهامسون فيما بينهم أنه مُلحد، وبالتّالي فإنّ إعلانه لإنشاء مدرسة قد أثار خصومه، لكن بطرس كان على علم بذلك فاضطر في أكثر من مناسبة لتوضيح موقفه، إذ صرح مرة بأنّ مدرسته منفتحة على كل الطوائف ليس إلا وهي لا تتعرض لأيّة طائفة بالإساءة، فهي مدرسة عموميّة وصفة العموميّة تعني في الشّرق تجاوز الخلافات.

رغم كل هذا إلا أنّ بطرس لن يُفلح في تهدئة مناوئيه، ومما زاد في الهوة إضافة إلى انفتاحه الذي لا يخفى على أحد، هو أنّه سيرفض في وقت لاحق أن يُعمّد أبناؤه، وصرح بأنّهم سوف يختارون الدّيانة التي يشاؤون متى بلغوا سن الرّشد، لكن هذه الفكرة ستثير النّاس دون شك، فهو بطرس المختلف عنهم فهو الوحيد الذي يسير بين النّاس حاسر الرّأس فيما يغطي الرّجال المحترمون رؤوسهم، إذاك سعى كثيرون لردعه عن قراره لكن عبثا، إذن فلا حاجة لمُحاججة الرّجل الكافر والمهرطق، كان بطرس يكرر"إنني أرفض الفتن الطائفيّة، فيجيب مالاتيوس: هذا كذب وبهتان، فهذا الرّجل لا يؤمن لا بالله ولا بمخلصنا، وإنما يقول ذلك لتضليلكم، فينبري بطرس قائلا، أوتظنون فعلا أني

رجل مخاتل يؤمن بشيء ويقول العكس لو شئت التّمويه؟ ...إفهموها مرة والى الأبد إنني أقول ما أفكر به وأفعل ما أفكر به ولو تصرّف الجميع على هذا النّحو لما بلغنا هذا الدّرك من الانحطاط "[16](معلوف2004). على الرّغم من الاتهامات، نجح بطرس بفضل إخلاصه وتفانيه في كسب ود بعض العائلات التي عهدت له بأبنائها، لكن الكلام حوله لم يهدأ أبدا، خاصّة عندما خرج إلى السّاحة رجل دين يدعى تيودوروس وهو أخ لبطرس، هذا الأخير تعذب كثيرا لما رأى من تمرّد أخيه على الكنيسة، بتأييد عدد من أفراد أسرته، وهو الوجه الصّاعد الذي كان النّاس يتهامسون فيما بينهم أنه سوف يُرسّم مطرانا في قادم الأيام، لكن كيف وهو ينتمي لهذه الأسرة التي لا يُعمّد الأولاد فيها ولها ثلاثة زيجات بأبناء وبنات الواعظ البروتستاني؟ كانت ردة تيودوروس عنيفة جراء الظرف الصّعب الذي تواجهه العائلة، ففضل الانزواء في الضّيعة، وقد همّ في أحد المرات على تعميد ولد لبطرس في غيابه، فهو لم يهدأ أبدا ولم يكف في دعوة أخيه بوضع حد لتمرّده.

حلت الحرب العالميّة الأولى وانتهت بتاريخ 1918، وتوفي جبرائيل هناك في كوبا ثم تلاشت ثروته بعد ذلك، وتغير الكثير من الأمور في العالم أجمع وفي لبنان وسوريا، وشاء القدر لبطرس أن يخوض تجربة جديدة اعتز بها أول الأمر لأنّها بشكل ما امتداد لنجاح المدرسة التي هو قائم عليها، فقد طلبت منه الكنيسة الارثودوكسيّة أن ينشئ عدداً من المدارس على نموذج مدرسته، وقد تم ذلك في بيروت التي قصدها لتسويّة بعض المسائل. لكن أهله أبدوا بعض التّردّد خوفا من زعزعة حياتهم بسبب هذه التّجربة الجديدة، أضف إلى ذلك تلك الشّائعات التي أطلقها خصم الماضي مالاتيوس، إذ أشاع بين النّاس أن بطرس اقتيد إلى حلب لأسباب مجهولة، فعل ذلك لأنّ مدرسته قد نالت الدّعم اللازم من طرف السّلطات الفرنسيّة، إذاك كتب إلى السّلطات الفرنسيّة التي تنادي

بالحريّة والمساواة والإخاء طلبا للنجدة مما قوى الرّجعيّة التي يمثلها مالاتيوس لكن لسوء الحظ لم يجن طائلا من ذلك فقد ارتاب الفرنسيون في مدرسته التي كانت تتلقى دعم المبشرين الأمريكيين، لذلك سيحارب لاحقا بصورة أشرس. كل ذلك سيعمّق قلقه وخوفه من المستقبل ويحمله على التّفكير في الرّحيل.

كل ذلك لم يحدث فقد توفي بطرس سنة 1924 وانهالت رسائل التّعزيّة من كل جهة بيروت، حلب، القاهرة، بيويورك ساوباولو...الخ. وفي سنة 1935 سوف تغلق المدرسة العموميّة التي أدارتها نظيرة لبعض الوقت أبوابها وستغادر العائلة الى بيروت وتستقر في بيت تعلّق فيه صورة الجد بطرس، ولن تعود العائلة إلى القريّة إلا صيفا هربا من حر السّاحل. بعد سنوات قلائل سوف يتعرف والدّ أ.م الذي يدعى شكري وهو شاعر وصحفي بشابة من أسرة مارونيّة تدعى أوديت، ويتزوجا في القاهرة عام 1945، ويأتي أمين معلوف إلى الدّنيا تحديدا عام 1949.

4. خاتمة– أمكننا استخلاص ما يلي:

- الهويّة مصطلح فضفاض ومخادع بشكل كبير، مهما اعتقدنا بأنّنا نحيطه وصفا، ألفيناه قد توارى خلف ستائر الذاكرة والتّاريخ والأزمنة، ذلك لأنّه مُتعلّق بالإنسان الذي يتحرك باستمرار مؤثرا ومتأثرا بالعالم من حوله، لذا كانت الذات متقلبة باستمرار وهو الأمر الذي يجعل بسط اليد على الهويّة مرانا يكاد يكون مستحيلا.
- أمين معلوف من العارفين بالهويّة وبمزالقها الكثيرة، فهو ينحدر من أسرة تضم البروتستانت(عدد من أعمامه) والكاثوليك (العم تيودوروس) وتارة العلمانيين (الجد بطرس) والمبشرين (الجد خليل)، إضافة إلى أنّ قريته الجبليّة في لبنان ضمت المدرسة العموميّة التي كان يديرها جده، وكانت تتلقى الدّعم من المبشرين الامريكيين، والمدرسة الكاثوليكيّة التي كانت تؤثر التّعليم الدّيني

وتتلقى الدّعم من الانتداب الفرنسي، هذه الخلفيّة التي راحت تغتني من كل التيارات أثمرت كتابا مهما هو الهويات القاتلة، إضافة الى هذا الكتاب بدايات أين نلمس لدى الكاتب توجسا من هذا المصطلح الذي ينزع صفة الشّفافيّة عن الكلمات التي نكتب بها، ويقول بأن أكثرها شفافيّة هي الأشد مكرا والتّباسا؛

- إنّ المقاربة المتأنيّة لكتاب بدايات جعلتنا نوقن بأنّ الهويّة ليست في كل الأحوال ما يُقال فقط، فما لا يقال هو كذلك مؤشّر على هويّة ما تتوارى خلف مواقف محددة، لقد تعقّب أمين معلوف كل الرّسائل التي جاد بها الصّندوق القديم للأسرة، ثم راح ينصت الى شهادات ممن لا يزالون أحياء، وقد كانت قراءته للرسائل قراءة أفقيّة تبحث فيما وراء الكلمات رغبة في الوصول الى المراد، وبالتّالي فإنّ المهمة لا تخلو من مجازفة خاصّة إذا أخذنا بعين الاعتبار المدة الزمنيّة الطويلة والتي تتسع لستة أجيال كاملة؛
- أخيرا نقول إنّ البحث في الهويّة يجد جدواه متى تشعّب وعرض الكثير من الحقائق، لأنّ الغايّة المرجوة في نهايّة المطاف ليس الوقوف عند نتائج صارمة، بل تحريك الرّاكد ومواكبة التّغيير المرتبط أساسا بتغير الإنسان والأديولوجيات والمفاهيم في عالم تتصارع فيه القوى العظمى والأفكار والأطروحات.

5.قائمة المراجع:

- سعد البازعي، مقاربة الآخر مقاربة أدبيّة، دار الشّروق، ط1، مصر، 1999.
- سعد البازعي، الاختلاف الثّقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثّقافي العربي ط1 المغرب 2008.
- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 2007.
- وجبور عبد النّور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.
- أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر: نهلة بيوض، دار الفارابي، ط3، بيروت، 2010.
- حميد لحمداني، الرّوايّة المغربيّة ورؤيّة الواقع الاجتماعي (دراسة بنيويّة تكوينيّة)، دار الثّقافة ط1 المغرب، 1985،
- ناتالي ساروت، الرّوايّة الجديدة والواقع، تر: رشيد بن جدو، وزراة الثّقافة قطر 2018
- أمين معلوف، بدايات، تر: نهلة بيوض، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2004.
- الطيب بوعزة، في ماهيّة الرّوايّة، عالم الأدب، ط1، بيروت، 2016.
- أمين معلوف، بدايات.
- أسماء جعبل، أسئلة الذات والهويّة في الرّوايّة العربيّة، أولاد الغيطو لإلياس خوري نموذجا، اطروحة دكتوراه، المركز الجامعي سي لحواس بريكة.

6. هوامش:

[1] سعد البازعي، مقاربة الآخر مقاربة أدبيّة، دار الشّروق، ط1، مصر، 1999، ص:12

[2] سعد البازعي، الاختلاف الثّقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثّقافي العربي، ط1، المغرب 2008، ص: 14.

[3] ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر 2007 ص:12

[4] ينظر: جبور عبد النّور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص:288

[5] ينظر أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر: نهلة بيوض، دار الفارابي، ط3، بيروت، 2010 ص، 17.

[6] حميد لحمداني، الرّوايّة المغربيّة ورؤيّة الواقع الاجتماعي (دراسة بنيويّة تكوينيّة)، دار الثّقافة ط1 المغرب، 1985، ص:107.

[7] ينظر: ناتالي ساروت، الرّوايّة الجديدة والواقع، تر: رشيد بن جدو، وزراة الثّقافة قظر 2018، ص:17

[8] أمين معلوف، بدايات، تر: نهلة بيوض، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2004، ص، 11.

[9] الطيب بوعزة، في ماهيّة الرّوايّة، عالم الأدب، ط1، بيروت، 2016 ص، 39.

[10] أمين معلوف، بدايات، ص، 18.

[11] أسماء جعبل، أسئلة الذات والهويّة في الرّوايّة العربيّة، اولاد الغيطو لإلياس خوري نموذجا، اطروحة دكتوراه، المركز الجامعي سي لحواس بريكة، 2003، ص، 74.

[12] أمين معلوف، بدايات ص:33.

[13] امين معلوف بدايات، ص:89.

[14] أمين معلوف، بدايات ص: 27.

[15] أمين معلوف، بدايات ص: 181.

[16] أمين معلوف، بدايات ص: 216.